تفسير ابن كثير

قال مجاهد في قوله تعالى : { وعدكم ا مغانم كثيرة تأخذونها } هي جميع المغانم إلى اليوم { فعجل لكم هذه } يعني فتح خيبر وروى العوفي عن ابن عباس Bهما { فعجل لكم هذه } يعني صلح الحديبية { وكف أيدي الناس عنكم } أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم { ولتكون آية للمؤمنين } أي يعتبرون بذلك فإن ا تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم وليعلموا بصنيع ا هذا بهم إنه العالم بعواقب الأمور وإن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر كما قال D { وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم } { ويهديكم صراطا مستقيما } أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله صلى ا عليه وسلّم .

وقوله تبارك وتعالى : { وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط ا بها وكان ا على كل شيء قديرا } أي وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها قد يسرها ا عليكم وأحاط بها لكم فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها فقال العوفي عن ابن عباس Bهما هي خيبر وهذا على قوله D : { فعجل لكم هذه } إنها صلح الحديبية وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال قتادة : هي مكة واختاره ابن جرير وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري : هي فارس والروم وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن سماك الحنفي عن ابن عباس Bهما { وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط ا بها } قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وقوله تعالى : { ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا } يقول D مبشرا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر ا رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نهزم جيش الكفر فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا لأنهم محاربون ولرسوله ولحزبه المؤمنين ثم قال تبارك وتعالى : { سنة ا التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة ا تبديلا } أي هذه سنة ا وعادته في خلقه ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلا نصر ا الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم .

وقوله سبحانه وتعالى : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان ا بما تعملون بصيرا } هذا امتنان من ا على عباده المؤمنين حين كف

أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام بل صان كلا من الفريقين وأوجد بينهم صلحا فيه خير للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والاخرة وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع Bه حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى فأوقفوهم بين يدي رسول ا صلى ا عليه وسلّم فنظر إليهم فقال : [أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه] قال وفي ذلك أنزل ا D : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم } الاية وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد عن ثابت عن أنس بن مالك Bه قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول ا صلى ا عليه وسلّم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول ا صلى ا عليه وسلّم فدعا عليهم فأخذوا قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الاية : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم } ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير من سنيهما من طرق عن حماد بن سلمة به .

وقال أحمد أيضا : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين بن واقد حدثنا ثابت البناني عن عبد ا بن مغفل المزني Bه قال : [كنا مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول ا صلى ا عليه وسلّم وعلي بن أبي طالب Bه وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم لعلي Bه : اكتب بسم ا الرحمن الرحيم فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال : اكتب باسمك اللهم ـ وكتب ـ هذا ما صالح عليه محمد رسول ا أهل مكة فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد ا فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول ا صلى ا عليه وسلّم فأخذ ا تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : هل جئتم في عهد أحد ؟ أو هل جعل لكم أحدا أمانا ؟ فقالوا : لا فخلى سبيلهم فأنزل ا تعالى : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم }] الاية رواه النسائي من حديث حسين بن واقد به .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي حدثنا جعفر عن ابن أبزى قال : لما خرج النبي صلى ا عليه وسلّم بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر Bه : يا نبي ا تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ قال : فبعث صلى ا عليه وسلّم إلى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حمله فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بمنى فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة فقال لخالد بن الوليد Bه : [يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل] فقال خالد Bه : أنا سيف ا وسيف

رسوله فيومئذ سمي سيف ا فقال : يا رسول ا ابعثني أين شئت فبعثه على خيل فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة فأنزل ا تعالى : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان ا بما تعملون بصيرا * هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل ا في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما } قال فكف ا D النبي صلى ا عليه وسلّم عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبزى بنحوه وهذا السياق فيه نظر فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية لأن خالدا Bه لم يكن أسلم بل قد كان طليعة للمشركين يومئذ كما ثبت في الصحيح ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء لأنهم قاضوه على أن يأتي في العام القابل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام ولما قدم صلى ا عليه وسلّم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه .

فإذا قيل : فيكون يوم الفتح ؟ فالجواب : ولا يجوز أن يكون يوم الفتح لأنه لم يسق عام الفتح هديا وإنما جاء محاربا مقاتلا في جيش عرمرم فهذا السياق فيه خلل وقد وقع فيه شيء فليتأمل وا أعلم وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس Bه قال : إن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول ا صلى ا عليه وسلّم ليصيبوا من أصحابه أحدا فأخذوا أخذا فأتي بهم رسول ا A فعفا عنهم وخلى سبيلهم وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول ا A بالحجارة والنبل قال ابن إسحاق : وفي ذلك أنزل ا تعالى : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم } الاية وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا يقال له ابن زنيم اطلع على الثنية من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه فبعث رسول ا A خيلا فأتوه باثني عشر فارسا من الكفار فقال لهم : [هل لكم علي عهد ؟ هل لكم علي ذمة ؟] قالوا : لا فأرسلهم وأنزل ا تعالى في ذلك : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم } الاية